المحاضرة السابعة ثالثة دعوة وثقافة إسلامية صفات الخطيب الناجح

هناك صفات كثيرة ينبغي للخطيب أن يتحلى بها إذا أراد أن يكون ناجحاً فى رسالته من ذلك :

1–قوة الملاحظة :ليدرك أحوال السامعين عند إلقاء خطبته أهم مقبلون عليه ؟ فيسترسل فى قوله ،ويستمر فى نهجه،أم هم معرضون عنه ؟ فيتجه إلى ناحية أخرى ، يراها أقرب إلى قلوبهم ، وأدنى إلى مواطن التأثير فيهم ، فيجب أن تكون نظرات الخطيب إلى سامعيه نظرات فاحصة كاشفة ، يقرأ من الوجوه خطرات القلوب ، ومن اللمحات ما تُكنُّهُ نفوسهم نحو قوله ، ليجدد من نشاطهم ، ويذهب بفتورهم ، ولتتصل روحه بأرواحهم ، ونفسه بنفوسهم [1] .

2– حضور البديهة : لتسعفه بالعلاج المطلوب إن وجد من القوم إعراضا ، والدواء الشافي إن وجد منهم اعتراضا، وقد يلقى الخطيب خطبته فيعقب بعض السامعين معترضاً ، أو طالباً الإجابة عن مسألة،فإذا لم تقدم البديهة الحاضرة كلاماً قيما ضاعت الخطبة وأثرها [2]

3– طلاقة اللسان : ولابد للخطيب أن يكون لسناً فصيحاً ، قادراً على التعبير ، لأن منطقه هو ثروته وعدته ، وهو بمنطقه يقنع ، وبمنطقه يستميل ، وما هَزَّ المنابر في القديم والحديث ، ولا تزعَّم الأمم وقاد الجماهير إلا الُّلسْن الفصحاء . وقد تعلم العرب بتجاربهم أن سعة الشدقين عون على الَّلسَن فامتدحوها ، قيل لأعرابي : ما الجمال ؟ قال " ... ورَحَبُ الشِّدْقين " . وتكلم الخطباء عند معاوية فأحسنوا ، فقال : " والله لأرمينهم بالخطيب الأشدق ، قم يازيد فتكلم " .ومن نقص الخطيب أن يكون بمنطقه عيب يعوق سهولة المخارج ، وسلامة الحروف واستواءها ،كاللجلجة والفأفأة ، والتمتمة ، واللثغة ، والَّلفَف ، والحُبْسَة وغير ذلك من عيوب الكلام [3] .

4– رباطة الجأش : يجب أن يقف الخطيب مطمئن النفس ، غير مضطرب ولا وجل ، وإلا لم يستطيع ملاحظة السامعين ، وأثر كلامه فيهم ، وهم إن أحسوا بضعفه واضطرابه ، صغر فى نظرهم ، ودهان هو وكلامه في أعينهم ، فلا يستطيع إثارة حماستهم ، ويذهب كلامه هباءً منثوراً ، والاضطراب يورث الحيرة والدهش ، وقد جاء فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري " الحيرة والدهش يورثان الحُبْسَة والحصر ، وهما سبب الإرتاج والإفحام . [4]

5– سعة الثقافة : قيل لعبد الملك بن مروان : عجل إليك الشيب يا أمير المؤمنين ، قال : وكيف لا يعجل عليّ ، وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين . أو قال : شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن . [5]حقا إن الخطيب يعرض على الناس عقله ، ويعرض عليهم ما عنده من تجربة أو فكرة أو عقيدة .وليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره ، ومن ثم يجب على الخطيب أن يكون ملماً بمعارف شتى . ولا يستغنى الخطيب عن الاطلاع الدائم ، وإلا تخلف وفتر تأثيرة ، فالروح كما قال فولتير " نار

[1] أبو زهرة : الخطابة 55

[2] السابق ، وانظر أيضا : على محفوظ : فن الخطابة 42

[3] د/ أحمد الحوفى : فن الخطابة 11 (بتصرف قليل وتلخيص)

[4] أبو زهرة 56

[5] جمهرة خطب العرب 3 / 376

إذا أنت لم تطعمها لتزيد وتقوى تناقصت وخمدت " والإنسان بالتعلم ومجالسة العلماء ، وبطول التقليب للكتب يجود لفظُهُ ويحسن أدبه .. يقول الجاحظ " ولو جالست الجهال والنَّوْكى والسخفاء والحمقى شهراً فقط لم تُنَقَّ من أوضاع كلامهم ، وخيال معانيهم بمجالسه أهل البيان والعقل دهراً ، لأن الفساد أسرع إلى الناس ، وأشد التحاماً بالطبائع . [6]

6- القدرة على مراعاة مقضى الحال : فلكل مقام مقال ولكل جماعة من الناس لسان تخاطب به ، ولكل فريق من الناس خطابا يليق بحاله ويوافق عقليته ويناسب سنَّه ، فلا يخاطب أشراف الناس وأوساطهم وسوقتهم بخطاب واحد ، فأولئك تكفيهم الإشارة ، وهؤلاء يحتاجون إلى بسط الكلام . فعلى الخطيب أن يكون مع كل طبقة على مقدار مبلغها من الفهم والاستعداد لقبول ما يريد غرسه فى نفوسها من المعاني ، فعن ابن عمر رضي الله مرفوعاً " أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم " .[7]

وعليه أن يراعى الأعمار فى خطابه مع شاب فتيِّ السن ، وكهل تام القوة ، وشيخ وقور مهيب ، فإن لكل سن نزعة خاصة وأخلاقاً خاصة ، وأحوالاً تستدعى ما يناسبها من فنون الكلام .

وبذلك يكون حكيماً يضع الشيء في محله ويداوى كل علة بدوائها .وجملة القول : أن لكل طبقة من الناس طباعاً وأخلاقاً وعادات وأحوالا تميزهم على اختلاف وظائفهم وصناعاتهم ومذاهبهم وأوطانهم لابد للخطيب من ملاحظتها وعلى مقدار هذه الملاحظة تكون مكانته فى النفوس ، ونجاحه في مهمته . [8]

7- قوة العاطفة : لا يؤثر إلا المتأثر ، ولا يثير الحماسة في قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه ، واعتقاداً بصدقه ، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب من غير استئذان ، فصاحب العاطفة العالية ، والحماسة الشديدة ، تخرج منه العبارات التي تلهب الحس وتوقظ النفس وتثير الحمية ، وتحفز الهمة ، فلابد أن تكون حماسة الخطيب أقوى من حماسة سامعيه ، ليفيض عليهم ، ويروى غلتهم ، وإلا أحسوا بفتور شعوره ، فضاع أثر قوله . [9]

8- النفوذ وقوة الشخصية :هي هبة من الله – سبحانه – يهبها بعض الناس ، ترى كل من يلقاه يحس بقوة روحه ، وعظم نفسه ، فتستمد كلماته من نفسه قوة ، نظراته شعاع ينفذ إلى القلوب ، وصوته يهز النفس هزات روحية تجعلها تلقف عباراته فتنطبع فيها مكبرة .. وقد منح الله – سبحانه – هذه الصفة لبعض الخطباء والدعاة كأبي بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، والحسن البصري ، وابن الجوزي ، وابن تيمية وغيرهم كثير في الماضي والحاضر . [10]

---

[6] البيان والتبيين ، وانظر د/ أحمد الحوفى : فن الخطابة 11

[7] رواه مسلم

[8] على محفوظ : فن الخطابة 43

[9] أبو زهرة 57

[10] السابق

9– أن يكون ثقة : إذا اشتهر الخطيب بسوء أو بنقيض ما يدعو إليه كان من حاله لسانٌ يناقض مقاله ، فيضعف تأثيره ، ولا يصل إلى قلوب الناس تفكيره ، ويشك السامعون في قوله ، ويرتابون في صدقه ، مما يؤدى إلى ضياع أثر الخطبة في نفوس السامعين .

10– التجمل فى ملابسه وهيئته : وهذا أمر يجب العناية به لأنه مطمع الأنظار ، والنظر يفعل فى القلوب مايفعل السمع ، لاسيما في هذا الزمان الذي يحترم فيه المرء بمجرد حسن هيئته .[11]

وقد ذكر قدامه مايجب أن يتصف به الخطيب فقال : ومن الأوصاف التى إذا كانت فى الخطيب سمِّىَ سديداً ، وكان من العيب معها بعيداً ، أن يكون فى جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيته غير مستكره لطبيعته ، ولامتكلف ماليس فى وسعه ، فإن التكلف إذا ظهر فى الكلام هجنه وقبح موقعه ، وحسبك من ذم التكلف أن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالتبرؤ منه فقال : (قل ما أسألكم من أجر وما أنا من المتكلفين) وألا يظن أن البلاغة إنما هى الإغراب فى اللفظ والتعمق فى المعنى ، فإن أصل الفصيح من الكلام ما أفصح عن معانيه ولم يُحْوِج السامع إلى تفسير له ، بعد ألا يكون كلاماً ساقطاً أو لألفاظ العامة مُشْبِهَاً ، ولذلك قال بعضهم فى وصف البلاغة " هى أن يتساوى فيها اللفظ والمعنى ، فلايكون اللفظ أسبق إلى القلب من المعنى ، ولا المعنى أسبق إلى القلب من اللفظ " .

[11] فن الخطابة 44